1430هـ/2009م

مفهوم العروبة والإسلام عند أبن باديس 1889–1940م

أ.م.د. زهير علي النحاس*

تاريخ التقديم: 2008/7/17 تاريخ القبول: 2009/1/21

المقدمـــــة

تبوأ أبن باديس مكانة متميزة في قائمة المفكرين والمصلحين الذين لعبوا دوراً إيجابياً مؤثراً في المغرب العربي، حيث كانت له مواقفه وجهوده التي لا يمكن تجاوزها أو إنكارها في تطور وإنضاج وإبراز الهوية القومية لشعب المغرب العربي عامة، والهوية الوطنية والقومية للشعب الجزائري خاصة، وقد برز ابن باديس في مرحلة أعتقد فيها المستعمر الفرنسي أنه قضى وأجهض، والى الأبد، الهوية الأصلية لأرض وشعب الجزائر، متوهماً أن سياسته في الاستيطان والإدماج والتنصير والفرنسة قد آتت أُكُلها، غير أن جهوده باستنزاف روح التحدي لدى الشعب الجزائري قد باءت بالفشل وظهرت ردود الفعل مبكراً منذ الاحتلال عام 1830م مروراً بالانتفاضات والثورات التي قاومت الاحتلال، والتي كان من أبرزها ثورة الأمير عبد القادر الجزائري (1830–1847م) وحتى قيام جبهة التحرير الجزائرية عام 1954م ونضالها وكفاحها المسلح، الذي دام ثمان سنوات، حتى تمكنت من تحقيق الاستقلال الناجز للجزائر عام 1962م.

يتجلى دور أبن باديس في رؤيته الثاقبة لحاجة الجزائر إلى التربية والتعليم وضرورة إتقان اللغة العربية وفهم أصول الإسلام وتعاليمه بشكل صحيح عبر إلقاء المواعظ والخطب في المساجد والجوامع وفتح المدارس باللغة العربية وقد فاجأ ابن باديس المستعمر في الحقل الذي اختاره للمنازلة، وهو حقل التعليم، فكان بحق الرائد في بناء اللبنات الاجتماعية الأولى المسلحة بالوعي والثقافة العربية الإسلامية والمختلفة كُلياً عن ثقافة المستعمر، ونجح في إيجاد الحاجز النفسي بين

* قسم التاريخ/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

الشعب والمستعمر الذي مهد الطريق للثورة الجزائرية. وقد لعب مفكروا ومصلحوا المشرق العربي أمثال؛ جمال الدين الأفغاني (1838–1897م) ومحمد عبده (1842–1905م) وعبد الرحم ن الكواكبي (1849–1902م) ورشيد رضا (1856–1935م) وغيرهم دوراً مؤثراً وكبيراً في البناء النفسي والثقافي لبن باديس وبلورة فكره العربي الإسلامي.

ولادتــه ونشأتــه:

ولد عبد الحميد بن محمد بن المصطفى بن مكي بن باديس في قسنطينة (شرقي الجزائر) في ليلة الجمعة الرابع من شهر كانون الأول (ديسمبر) 1889م في عائلة أمازيغية (*) عريقة اشتهرت بالعلم والفضل والثراء، ترجع أصولها إلى بلكين بن زيري بن مناد المكنى بأبي الفتوح من قبيلة صنهاجة (*) ومن أجداده الأوائل المشهورين المعز بن باديس الصنهاجي(1016–1062م) مؤسس الدولة الصنهاجية الأولى(1048–1062م)[1].

ومن أجداده القريبين أبو العباس حميده بن باديس أحد وجهاء قسنطينة ومن أشهر علمائها، عمل قاضياً، ولما رأى ظلم فرنسا واستبدادها قدم عريضة، ضمنها مطالب الشعب الجزائري في الحرية بممارسة الشعائر الدينية وفي إصلاح القضاء وذلك عام 1891م. وارتبط تأريخ أسرته القريب بعلاقات مشبوهة مع السلطات الفرنسية. فقد حصل جده لأبيه (مكي بن باديس) على وسام نابليون

(*) نسبة الى أمازيغ بني كنعان، وتعني (الأحرار) في اللغة الامازيغية، إشارة الى سكان المغرب العربي القدماء، وهم يرفضون أسم (البربر) الذي أطلق عليهم، تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم(1900–1940)، ط 6، (الجزائر– 1974)، ص222.

(*) من قبائل البربر القديمة في منطقة المغرب العربي، ومنها (لمتونة والملتمون والطوراق) وكانت بينهم وبين قبيلة زناتة حروب ومنازعات وكانوا من مناصري الدولة الفاطمية.

(1) نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ط 1، (بيروت، 1981)، ص527؛ الشيخ خليل حوراني، "عبد الحميد بن باديس الداعية المصلح والسياسي المجاهد"، مجلة الوحدة الإسلامية، العدد/17، نيسان(أبريل)(لبنان– 2003)، ص3.

الثالث عام 1863م، وأما أبوه محمد المصطفى، فقد ارتبط بالسلطات الفرنسية من خلال عمله في النيابات المالية التي كانت من ارفع المناصب التي يمكن أن ينالها جزائري آنذاك، فكان عضواً في المجلس الأعلى، ونائباًُ عن قسنطينة في المجلس العمالي الأعلى، لكن ذلك لم يمنعه من أن يكون من ذوي الفضل والمروءة والحفاظ على شعائر الإسلام والغيرة عليه، وكان من حفظة القران الكريم، وعمل على تربية ابنه (عبدالحميد) التربية الصالحة، وسعى إلى توجيهة نحو الدراسة الدينية ورعايته له في الحفل الذي أقامه في قسنطينة عام 1902 بمناسبة ختمه القران الكريم وهو في الثالثة عشر من عمره، فضلاً عن تزويجه وهو في سن الخامسة عشرة من عمره عام 1904[1].

أما أمه السيدة أزهيرة بنت محمد بن عبد الجليل بن جلول، فهي من اسرة معروفة بالفضل والنبوغ والشجاعة في قسنطينة، يرجع أصلها إلى قبيلة بني معاف المعروفة في جبال أوراس، وهي حفيدة أميرة تركية تزوجها جد الأسرة أبان العهد العثماني، وكانت (أزهيرة) سيدة ذكية محبة للعلم موقرة لأهله، وتعتقد أن العلماء المصلحين هم أشرف الخلق بعد الأنبياء وكانت تتضرع في صلواتها أن يرزقها الله بذرية صالحة [2]. وكان (عبدالحميد) هو الابن البكر فضلاً عن ستة أولاد لها (أربعة أولاد وبنتين) وقد ظل أبن باديس شغوفاً بأمه يشيد بها ويذكرها دائماً، معبراً عن مدى تأثر حياته الشخصية بها، وكان أبواه من الأسباب المشجعة، في توجهه العلمي وسلك طريق الجهاد[3].

تعليمه وتوجهاته الإصلاحية:

تلقى عبدالحميد بن باديس تعليمه الأولي وفق الطريقة التقليدية القديمة (الكتاتيب) عند الشيخ ابن الماداسي لتحفيظه القرآن الكريم وعمره آنذاك خمس

(1) الحوراني، المصدر السابق، ص3.

(2) محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، ط1، (الجزائر – 1971)، ص58.

(3) المصدر نفسه، ص61–62.

سنوات وكانت أمه تحثّه على المواظبة والاجتهاد، وقد أتم حفظ القران وهو لا يزال في سن الثالثة عشرة، حيث علمه أصول اللغة العربية والثقافة الإسلامية[1]. ونظراً لاستقامة خلقه وذكائه وسيرته المحمودة قدمه شيخه الماداسي للإمامة المصلين في صلاة التراويح في شهر رمضان المبارك ولمدة ثلاث سنوات متتالية، وذلك في الجامع الكبير بقسنطينة، ولم يلتحق عبد الحميد منذ البداية بالمدارس الفرنسية كغيره من أبناء العائلات الكبيرة، لأن أسرته كانت ترغب بتربيته وفق النهج العربي الإسلامي[2].

ومنذ عام 1903م أخذ أبن باديس بتلقي دروس اللغة العربية والعلوم الإسلامية في مسجد سيدي محمد النجار على يد الشيخ حمدان الونيسي(1826–1920م) الذي عرف بالإصلاح والتقوى. واستمرت دراسته خمس سنوات، تركت خلالها أثراً طيباً في تكوينه الفكري واتجاهه الإصلاحي والوطني، حيث أخذ عليه عهداً "بأن لا يقرأ العلم إلا للعلم" وبأن لا يقرب الوظائف الحكومية تحت إمرة المستعمر الفرنسي.[3]

وعندما بلغ التاسعة عشر من عمره سافر أبن باديس إلى تونس وانتسب إلى جامع الزيتونة وتأثر كثيراً بأستاذه الطاهر بن عاشور (1879–1973م) الذي يرجع الفضل إليه في اتجاهه العروبي والإسلامي إذ يقول عن دروسه "حببتني في الأدب والتفقه في كلام العرب والاعتزاز بها كما أعتز بالإسلام" [4]. وخلال وجوده في تونس اتصل ببعض رواد الفكر العربي الإصلاحي السلفي هناك، وبعد انهاء دراسته العليا عام 1912 ارتحل أبن باديس إلى المدينة المنورة، وزار الشام ومصر وعاد إلى قسنطينة عام 1913. وكان طموحاً في ان يتفرغ للتدريس وان يكون

(1) دبوز، المصدر السابق، ص61–62.

(2) تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم 1900–1940، ط5، (الجزائر، 1974)، ص160–161.

(3) رابح، المصدر السابق، ص62، ص164.

(4) نزار ألحديثي، عبدالحميد بن باديس ودوره في الحركة الوطنية في الجزائر، مجلة دراسات في التاريخ والآثار، العدد(5)، (بغداد– 1988)، ص219.

الواسطة لعقد حلقات دراسية على غرار ما شهده في تونس وكان هدفه تخريج نخبة مختارة من رجال الدعوة والإصلاح تعمل على نشر العلم والإصلاح من بعده. ويشير إلى ذلك بقوله: "لما قفلنا من الحجاز وحللنا بقسنطينة عام (1321هـ–1913م) وعزمنا القيام بالتدريس أدخلنا في برنامج دروسنا تعليم اللغة وآدابها والتفسير والحديث والأصول ومبادئ التاريخ ومبادئ الجغرافية ومبادئ الحرب وقضينا عشر سنوات في المدارس لتكوين نشئ علمي وظهرت بحمد الله نتيجتها"[1].

رفض أبن باديس الهجرة التي عرضها عليه عدد من الشيوخ الجزائريين المقيمين في الحجاز، وأصر على مقاومة الاستعمار الفرنسي في الجزائر قائلاً "نحن لا نهاجر نحن حراس الإسلام والعربية القومية في هذا الوطن"، واتفق مع زميله الشيخ البشير الإبراهيمي [2] على خطة لأعداد جيل من الرجال يواجهون محاولات التمزيق والتفتيت القومي في الجزائر، ويعيدون لها"العروبة والإسلام والقومية" رجال"يملكون وضوحاً في الهدف وفكرة صحيحة توصل إليهم حتى وان كانوا ذوي علم قليل!" رجال يعرفون حدود غاياتهم في كونهم يمثلون أمانة الوطنية والقومية، يؤتمن عليهم في تسليمهم الراية إلى جارٍ ثانٍ يأتي بعدهم، معلنين الثورة وتحقيق الاستقلال والعيش الرغيد للجزائر. فمكث ثمانية عشر عاماً للفترة (1913–1931) يُعدُّ الرجال، جيلاً بعد جيل قائلاً "أنا لا أُولف الكتب وإنما أريد صنع الرجال"[3].

---

(1) تركي رابح، دراسات في التربية الإسلامية والشخصية الوطنية، ط 1، (بيروت– 1982)، ص134.

(2) من رواد النهضة العربية في الجزائر (1889–1965) التقى بابن باديس في الحجاز عام 1913، واتفق معه على نشر الآراء والأفكار الإصلاحية الدينية والوطنية، وتكوين نخبة من المتعلمين عربياً وإسلاميا ووطنياً، رابح، الشيخ عبدالحميد بن باديس، ص172–177

(3) محمد عمارة، العروبة عند تيار التجديد الديني الحديث، مجلة قضايا عربية، العدد (2)، (بيروت–حزيران 1979)، ص24.

واجهت القومية العربية في الجزائر، شأنها شأن سائر القوميات المقهورة المحتلة، ما واجهته القومية الألمانية بعد احتلال نابليون بونابرت لألمانيا في مطلع القرن التاسع عشر (1802م)، حين عوّلت تركيز نشاطها على النضال الثقافي وقامت بتحفيز الألمان وحثهم على المقاومة من اجل بقاء الأمة الألمانية [1]، وهذا ما فعله شيخنا الإمام عبدالحميد بن باديس[2]، وبدأت جهوده بالتدريس في الجامع الأخضر في قسنطينة[3] فكان يهتم في تربية وتعليم العربية للأطفال والشباب في النهار، ويعظ في المساجد، الشباب والكبار في الليل يعلمهم دروس التفسير والحديث والحضارة الإسلامية، ونبذ البدع والضلالات ومفاسد العادات التي تنافي مبادئ الإسلام الحنيف[4].

كما قام ابن باديس برحلات داخلية جاب خلالها المدن والقرى الجزائرية منشئا المدارس والمكاتب في قلب المساجد، لتعويض الجزائريين عمّا حرمتهم منه السلطات الفرنسية من إلغاء التعليم باللغة العربية في مدارسهم ومعاهدهم وكلياتهم، وإن جهوده وإنفاقه ثروته الشخصية، وجمعه التبرعات، للنفقة على تأسيس المدارس الوطنية وبنائها في القرى، تمخضت عن أنجاز وبناء (350) مدرسة كانت تخرّج أكثر من (150) ألف جزائري يتقنون اللغة العربية[5]. وتمكن أبن باديس من كسب نحو ألفٍ من صفوة المؤيدين لسياسته الإصلاحية للفترة (1913–1931)[6].

وكانت الطرق الصوفية (المنحرفة) سنداً أساسياً للسلطات الفرنسية حيث كان لمعظم أصحاب الطرق الصوفية والزوايا تأثير كبير على مجتمع المغرب

---

(1) ينظر، هـ. أ. ل. فشر، تاريخ أوربا في العصر الحديث 1789–1950، ترجمة احمد نجيب هاشم ووديع الضبع، ط4، (القاهرة، 1964)، ص92–99.

(2) رابح، دراسات في التربية الإسلامية، ص107.

(3) أصبح هذا الجامع مركزاً لتجديد الثقافة العربية الإسلامية وبعثها في الجزائر، المصدر السابق، ص529.

(4) رابح، المصدر السابق، ص134.

(5) أنور الجندي، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا، (القاهرة– 1965)، ص54.

(6) عمارة، المصدر السابق، ص24.

العربي، في الجانبين الروحي والاجتماعي، وكثيراً ما كانو ا يتوسطون بين الحكومات المحلية والأهالي، وغالباً ما كانت السلطة تستعين بهم للمحافظة على الأمن وحتى لجباية الضرائب. مستغلة رجعية تفكيرهم وجموده، فأغدقت عليهم المنح الامتيازات من اجل ضمان كسبهم ومساندتهم للمستعمرين ودعوة الناس لتأييدهم، وقد ذكر علال الفاسي(أبرز السياسيين المتنورين في المغرب) أنه في أواخر القرن التاسع عشر بلغ عدد أتباع الطرق الصوفية في الجزائر (168,874) مريداً[1].

تصدى أبن باديس للمتاجرين باسم الدين وفضح المتعاونين منهم مع المستعمر الفرنسي، الذين أدعوا ان لهم كرامات روحية طغت على الحياة العامة للمجتمع الجزائري، وأفضت إلى ظهور البدع والخرافات والشعوذة المنافية لعقيدة التوحيد[2]، وحذر أبن باديس الشعب الجزائري من الانزلاق والانسياق وراءهم بقوله" أحذر من دجّال يتاجر بالطلاسم ويتخذ آيات القران وأسماء الرحمن هزواً يستعملها في التمويه والتضليل" [3]. وقد حاول هؤلاء تشويه صورة الشيخ أبن باديس ومنعه من التعريض بهم فأخذوا يطلقون عليه أسم (إبليس) بدلاً من باديس، ويتصدون له بعد إلقاء خطبه ومواعظه ويرمونه بالحجارة، كما فشلوا قبلها باغتياله، بتكليف أحد مريدي الطريقة الصوفية (العليوية) عام 1927م، عندما كان أبن باديس يهم بالخروج من الجامع الأخضر بقسنطينة[4].

اهتم أبن باديس بالصحافة الوطنية ودورها في تحصين المجتمع الجزائري وتثقيفه ضد المخططات الاستعمارية المرسومة، وسعى إلى تنوير أذهان الناس بالمواعظ المكتوبة، وكتاباته التحريضية ضد المستعمر ومقالاته التربوية الإصلاحية الموجهة عبر الصحف الجزائرية، منها مشاركته في إصدار جريدة

(1) أنظر كتبه: المغرب العربي منذ الحرب العالمية الاولى، (القاهرة– 1955)، ص13.
(2) سلمان، المصدر السابق، ص134.
(3) الحوراني، المصدر السابق، ص6.
(4) سلمان، المصدر السابق، ص90، ص134.

النجاح، ومجلة المنتقد عام 1926، وكان شعارها (الحق فوق كل احد، والوطن قبل كل شيء) فعطلتها السلطات الفرنسية بعد ثمانية عشر عدداً، لكنه عاد فأصدر جريدة (الشهاب) (أسبوعية ثم شهرية) عام 1927م، كما أصدر صحفاً أخرى تعرضت للمصادرة والإلغاء منها (الشريعة) و (السنة المحمدية) و (الصراط)[1].

أما موقفه السياسي إزاء الاحتلال الفرنسي للجزائر، فانه لم يكن رجل سياسة، بل كان رجل فكر وثقافة ومجدداً إصلاحياً في سبيل تحرير العرب من نير الهيمنة والاستغلال، ولم يكن عدواً للفكر الغربي وإنما كان عدواً لاتجاهاته الاستعمارية، وكان يؤكد أن "الجزائر ليست فرنسا ولايمكن أن تكون فرنسا.. في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها"[2].

واستكمالا لموقفه السياسي انتمى أبن باديس إلى أول حزب شكله المثقفون الجزائريون وهو حزب المصلحين، وهم ممن عرفوا (بالنخبة)، تبلور فكرهم السياسي عندما أسهموا في تأسيس (جمعية العلماء المسلمين) في 5 حزيران 1931م، والتي جاء تأسيسها بمناسبة مرور مائة عام على الاحتلال الفرنسي. وكان الطابع الاستفزازي أحد العوامل المباشرة في تأسيس الجمعية. ورفعت الجمعية شعاراً "الإسلام، العروبة، الجزائر" [3] مفاده [الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا]. وقد نشطت الجمعية في فتح المدارس وإنشاء المساجد وإقامة النوادي الثقافية والدينية بقصد المحافظة على شخصية الجزائريين وتحصين هويتهم الوطنية والقومية والإسلامية[4].

جذور فكره الإصلاحي:

(1) رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ينظر التفاصيل في الصفحات 188–194.
(2) الجندي، المصدر السابق، ص56.
(3) رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص141.
(4) سعيد إسماعيل علي، الفكر التربوي العربي الحديث، (الكويت – 1987)، ص92.

يمكن إرجاع الفضل لأفكار أبن باديس الإصلاحية، وبشكل مباشر إلى أساتذته الأوائل الذين تلقى العلم على أيديهم، وغالباً ماكان يذكر ذلك في كتاباته مشيداً بأفضالهم العلمية والإصلاحية له، وكان من بينهما الشيخان احمد أبو حمدان الونيسي (1826–1920م) ومحمد النخلي القيرواني (1882–1942م) من أعلام مدرسي جامع الزيتونة، اللذان أثرا في نفسه، وبرا في مواهبه، حيث تلقى عليهما مناهج العلم والكفاح في الحياة، ولم يبخسا حقه قط، ويشير أبن باديس في هذا الصدد قائلاً "كان لهما الأثر البليغ في تربيتي وفي حياتي العلمية، وهما من بين مشايخي اللذان تجاوزا بي حد التعليم المعهود من أمثالها إلى أمثالي إلى التربية والتثقيف، والأخذ بيدي إلى الغايات المثلى في الحياة"[1].

ولم يفتأ بن باديس، يذكر فضائل الشيخ الونيسي، فهو الذي بذر البذرة الاولى، إذ أهدى وغرس في نفسه مبدأ العلم والمعرفة لأجل خدمة الوطن والإنسانية. بفضل الدروس التي تلقاها على يديه، مما أهلته للقبول في الزيتونة، والدراسة في مستوى السنة الرابعة من التعليم بدلا من قبوله في مستوى السنة الاولى من التعليم، اذ كانت الدراسة في الزيتونة تستلزم من الطالب قضاء سبع سنوات دراسية، حسب المناهج المقررة[2]. وقد توطدت العلاقة بين التلميذ وأستاذه، الذي أخذ عليه عهداً بان لا يقبل عملاً حكومياً لاعتقاده ان الوظيفة الحكومية تعيق نشاط الداعية عن أداء رسالته، بل ويتجاوز أحيانا ليحط من كرامته وتقييد حريته[3].

أما الشيخ محمد النخلي، فقد فتح لأبن باديس أفاقاً في التجديد، وطرح الأفكار والآراء جراء أساليب المفسرين من أساتذته التقليديين الذين اعتمدوا في تفسيرهم ودروسهم التأويلات الجدلية وإصلاحاتهم المذهبية في كلام الله (فيما لا

(1) محمد صالح الجابري، العلامة عبدالحميد بن باديس في تونس، الحلقة الاولى، مجلة العرب والعالم، العدد (32) بيروت، 1982.
(2) المصدر نفسه، ص26–27.
(3) الحوراني، المصدر التسابق، ص5.

اختلاف فيه من القرآن) وحشوا في أذهان تلاميذهم بما يحفظونه من القوالب والمقولات، دون تفكر أو تدبّر، ويحفظ بن باديس نصيحة بالنص، لهذا الشيخ الجليل، تقول:

"اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة، والأصول المختلفة، والآراء المضطربة، يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح"[1].

وهناك عامل مهم أثر في تكوين شخصية أبن باديس الإصلاحية وغيرته الوطنية، ارتبط بظهور كتابات عمر راسم وعمر بن قدور، المناضلين المعروفين في الجزائر، اللذين جاهدا بالقلم والفكر للدفاع عن الشخصية العربية الإسلامية الجزائرية، إزاء المخططات الاستعمارية وأسهما بالكتابة لصالح العمالة التونسية في ظل الاستعمار الفرنسي للفترة 1907–1911، وهي ذات الفترة التي أقامها أبن باديس طالباً في جامعة الزيتونة[2].

وقد تأثر الفكر الإصلاحي لأبن باديس، بصورة غير مباشرة بالوسط الفكري والاجتماعي والسياسي الذي عايشه في الزيتونة، فقد كان للوسط الاجتماعي هناك، الفضل الأكبر في تكوينه السياسي عبر ماكان يطالعه في الصحف والمجلات من مقالات سياسية وإخبارية وتحليلية حول وضع الجزائر، وبما كان بالأقطار العربية الشقيقة المجاورة من أخطار تحيق بها، منها مطامع ايطاليا وحربها في ليبيا عام 1911م، والتوجهات الاستعمارية الفرنسية في المغرب، ولما كان يجري في تونس في ذات العام جراء الصدام بين الحركة الوطنية التونسية والسلطات الفرنسية في حادثة الزلاج[3].

وعبر الإطلاع على فكره الإصلاحي الثر، تستبعد المصادر أساتذته في قسنطينة، أو أنها تسربت عبر الزيارة للشيخ محمد عبده إلى هذه المدينة عام 1904، إذ كان أبن باديس لا يزا ل غلاماً يافعاً في ذلك التاريخ لا يتجاوز عمره الرابعة عشرة بعد، ويستبعد أن اجتمع بالإمام محمد عبده في مدينة قسنطينة،

(1) الجابري، المصدر السابق، ص27.
(2) الجابري، المصدر السابق، ص30، ص32.
(3) المصدر نفسه، ص30.

وحتى إذا كان قد اجتمع به وحضر دروسه، فلا يمكن استيعاب أفكاره الإصلاحية وهو في هذا السن المبكر[1].

مفهوم العروبة والإسلام عند إبن باديس:

لايمكن لأي باحث ان يستوعب مفهوم العروبة والإسلام عند أبن باديس ما لم يكن ملماً بجذوره القومية والدينية والظروف التي نشأ فيها، فقد كان بن باديس متأثراً بكتابات الشيخ البشير بن صفر (1862–1917م) أحد المصلحين المجددين في تونس ومن بناة النهضة العلمية والفكرية الحديثة في المغرب العربي [2]، والذي كان له الفضل في معرفة أبن باديس بتاريخ أمته العربية والإسلامية وإطلاعه عليه حيث يقول "وأنا شخصياً اصرّح بأن كراريس (البشير بن صفر) الصغيرة الحجم الغزيرة العلم، هي التي كان لها الفضل في إطلاعي على تاريخ أمتي وقومي، والتي زرعت في صدري هذه الروح التي انتهت بي اليوم لان أكون جندياً من جنود الجزائر"[3].

كما تأثر أبن باديس بالأفكار السلفية الإصلاحية المتمثلة بآراء وأفكار محمد عبده عن طريق مجلة المنار التي كان يصدرها رشيد رضا (تلميذ محمد عبده) في بيروت، فكان أبن باديس يتتبع قراءتها وينقل أحيانا منها بعض المقالات وينشرها في مجلة الشهاب التي كان يصدرها منذ 1925، كما كانت له مراسلات وكتابات مع صاحبها الشيخ رشيد رضا شخصياً[4].

---

(1) المصدر نفسه، ص31.

(2) أحد أعضاء جمعية العروة الوثقى التي أسسها جمال الدين الأفغاني سنة 1882م، لعب دوراً وطنياً كبيراً في نشر العلم والثقافة الحديثة وإذكاء الروح الوطنية في تونس، درس في اوربا واشتغل بالتدريس في جامع الزيتونة ومدرسة الخلدونية، وتقلد عدة مناصب علمية وسياسية في تونس، للمزيد، ينظر: الطاهر عبدالله، الحركة الوطنية التونسية، رؤية شعبية قومية جديدة(1830–1956)، ط1، (بيروت– 1976)، ص33–36.

(3) تركي رابح، الشيخ عبدالحميد بن باديس، ص167.

(4) المصدر نفسه، ص169.

أما عن الظروف التي نشأ فيها أبن باديس ومدى تأثره نبها، فقد كان من الامازيغ (البربر)، ويضرب جذور انتماءه لهم إلى ما قب ل الإسلام (عصر الامازيغ)، غير انه أدرك اثر الإسلام في الامازيغ، ولم يجد تناقضاً بين شخصيته الامازيغية الجزائرية وبين انتماءه للعروبة والإسلام، فهو يرى ان الجزائر بدأت في التاريخ أمازيغيا غير ان دخولها الإسلام وتكملها العربية وامتزج الامازيغ بالعرب جعلهم حالة واحدة، ويشير قائلاً: "ليس تكون الأمة يتوقف على اتحاد دمها ولكنه متوقف على اتحاد قلوبها وأرواحها وعقولها اتحاداً يُظهر وحدة اللسان وآدابه واشترك في الآلام والآمال"[1].

رفض بن باديس الرابط العرقي للعروبة مستنداً إلى حديث الرسول (ﷺ) "ليس العربية بأحدكم من أب ولا أم إنما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي" فهو يعتبر الرسول الكريم (رجل القومية العربية) [2]. وأشار في مقال نشره عام 1936م قائلاً:" هذا هو رسول الإنسانية ورجل الأمة العربية الذي نهتدي بهديه ونخدم القومية العربية.. ونحيا لها ونموت عليها.." [3] فهو بذلك قدم مفهوماً فكرياً سياسياً ذا محتوى ومفهوم تقدمي وهو يحدد دور العرب في الحضارة الإنسانية قبل الإسلام، وأنهم كانوا أرضاً خصبة للشخصية العربية، لكنه يرى ان سبب تدهور العرب المسلمين كان الابتعاد عن الكتاب والسنة [4]. رافضاً أساليب الاستعمار ومتمسكا بالجزائر العربية المسلمة ويشير قائلاً:" إن الأمة التي صنعها الإسلام وهي صنيعة الله، وأنجبتها العرب وهي أمة التاريخ، وأنبتتها الجزائر وهي العاتية على الرومان والفاندال لا تستطي ع ولن تستطيع ان تمسحها الأيام ونوائب الزمان"[5].

---

(1) محمد الميلي، بن باديس وعروبة الجزائر (بيروت 1973)، ص55.
(2) المصدر نفسه، ص145.
(3) الميلي، المصدر السابق، ص56.
(4) محمود قاسم، الإمام عبدالحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، (القاهرة– 1968)، ص51.
(5) سلمان، المصدر السابق، ص58.

وأيقن أبن باديس بأن الإسلام هو الذي تبنى عليه عروبة الجزائر، لأنه يشكل مانعاً حصيناً لشخصية الشعب الجزائري ضد أي تهديد داخلي أو خارجي، ففي خطاب ألقاه عام 1938 بكلية الشعب بمدينة قسنطينة أشار قائلاً: " أنني أعاهدكم على أنني أقضي بياضي على العروبة والإسلام، كما قضيت سوادي عليها وأنها لواجبات، وأنني سأقصر حياتي على الإسلام والقرآن ولغة الإسلام والقران"[1].

كان أبن باديس يجاهر بالدعوة الإصلاحية السلفية ولم يكن بذلك السلفي المنغلق على نفسه، يجمّد النصوص حال عجزه عن إمكانية الحوار، بل كان يتبادل النقاش والحوار والتأثير مع النخبة الجزائرية المثقفة بالثقافة الفرنسية [2] فكانت نظرته للإسلام تقوم على: إسلام ذاتي، مبني على فهم الأصول الصحيحة للدين الإسلامي، وإسلام وراثي، الذي يقوم على تحصين الأمم الضعيفة وتحفظ به تماسكها، ولاسيما أمة العرب التي حافظت بفضل الإسلام على شخصيتها الوطنية والقومية، بفضل لغة القرآن، وحفظت لها الكثير من أخلاقها وآدبها [3]، فالإسلام عند بن باديس ليس الصفات التي يرثها الإنسان، فهو يرفض الإسلام التقليدي المتوارث، الذي يعتقد "بأنه لم يحقق للأمة نهضتها نتيجة ما لحقه من بدع وأوهام وخرافات غلفته بالجمود والسبات الممقوتين"، ولذلك فهو يربط بين فهم الإسلام وفهم المعاصرة والتحديث باللغة العربية التي يعدها الأداة الفاعلة لربط العرب بماضيهم ومستقبلهم فهي عنده (لغة الدين ولغة الجنس ولغة القومية ولغة الوطنية المحروسة أنها وحدها الرابطة بيننا وبين ماضينا)[4].

وأكد بن باديس أصالة الإسلام، التي عبر عنها القرآن والحديث والسلف الصالح، وربط العروبة بالإسلام وأعطاها مفهوما إنسانيا عندما اختارها (الأمة

(1) رابح، دراسات في التربية الإسلامية، ص142.
(2) الميلي، المصدر السابق، ص12.
(3) المصدر نفسه، ص59.
(4) عمارة، المصدر السابق، ص36.

العربية) لحمل الرسالة للبشرية جمعاء ولذلك فهو يرى " أن إنسانية الأمة العربية كانت جزءاً من مكانتها التاريخية ماضياً وحاضراً ومستقبلاً فالذي يسعى للإصلاح بإقصاء وفصل العرب عن الإسلام فأنه لن يحقق شيئاً"[1].

آمن أبن باديس بعروبة الجزائر، وبأنها عروبة تاريخ وحضارة، وأشاد بالقومية العربية قائلاً: "حسبي ان أكون قد خدمت القومية العربية التي هي خدمة للإسلام والقرآن". ويتحدث أبن باديس عن العروبة، فيصفها بأنها حقيقة واضحة رغم التضليل والتزييف الاستعماري وأنها نهاية المطاف في الصراع، رغم أن الظروف العصيبة التي عاشتها الجزائر كادت تطمس معالم الإسلام والعروبة هنالك. لكنه كان يؤمن بالغد العربي الأكبر الذي كفّر به المستعمر[2].

ودحض حجة المستعمر الفرنسي بصبغ العروبة بالعرقية والطائفية [3] ويرد قائلاً: "وإذا نظرت إلى.. فرنسا، فأنك تجدها خليطاً من دماء كثيرة ولم يمنعها ذلك من ان تكون أمة واحدة.." فيما استمد بن باديس العروبة من منابعها الأصيلة، مستلهماً حديث رسول الله محمد (ﷺ) الذي ربط العروبة بالدين واللغة [4] "أيها الناس، الرب واحد والأب واحد والدين واحد، وليست العروبة بأحدكم من أب و لا أم، ولكنها اللسان، فمن تكلم العربية، فهو عربي" [5]. ويثني بن باديس على ذلك بالقول "كون رسول الإنسانية ورجل القومية العربية أمته هذا التكوين المحكم العظيم ووجهها لتقوم للإسلام والبشرية بذلك العمل الجليل". داعياً من الله (عز وجل) أن يحييه لخدمة العروبة ويميته في خدمتها ويشير قائلاً:

---

(1) نزار ألحديثي، عبدالحميد بن باديس ودوره في الحركة الوطنية في الجزائر، مجلة دراسات في التاريخ والآثار، العدد (5)، (بغداد–1988)، ص234–235.

(2) بسام العسلي، عبدالحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، ص124.

(3) العسلي، المصدر السابق، ص125.

(4) المصدر نفسه، ص126.

(5) علي بن الحسين ابن عساكر، تهذيب التاريخ الكبير، تحقيق عبد القاد ر بدران، ج 2، (دمشق– 1351هـ/1933م)، ص198.

"هذا رسول الإنسانية ورجل القومية العربية الذي نهتدي بهديه، ونخدم القومية العربية خدمته، ونوجهها توجيهه، ونحيا لها ونموت عليها، وان جهل الجاهلون وخدع المخدوعون واضطرب المضطربون"[1].

لقد ساد الجزائر إسلام مشوه وثقافة أجنبية غربية، وحاولت فرنسا من خلالها إعطاء صورة مشوهة عن تاريخ وحضارة المغرب العربي، بكونه ينتمي إلى عهد الرومان والغال أجداد الفرنسيين، فتصدى أبن باديس لها، ليؤكد عروبة الجزائر وأطلق مقولته الشهيرة:

شعب الجزائر مسلم والى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات، فقد كذب

وأكد أن "الأمة الجزائرية تعربت طبيعياً اختياراً صادقاً، فهي في تعربها نظيره إسماعيل جد العرب الحجازيين فقد كان من العرب... شب في مهدهم ونطق بلسانهم وتزوج منهم"[2].

ووصف أبن باديس (عروبة الجزائر) بأنها عروبة تأريخ وحضارة ولن يقوم الوطن الجزائري إلا بها ويشير إلى ذلك بقوله" لبس أبناء الجزائر العروبة، وامتزجت بأرواحهم وتغلغت في قلوبهم معارفها، وجرت ينابع بيانها على ألسنتهم، فأصبحوا علماء وخطباء وشعراء.. ومنها جنود وقواد وأمراء"[3].

ووصف الأمة العربية بالرابطة القومية الثابتة والدائمة فيقول:

"هذه الأمة العربية تربط بينها زيادة على رابطة اللغة، رابطة الجنس ورابطة التاريخ ورابطة الأمل في الوحدة القومية"[4].

وحدد بن باديس مفهوم العروبة بأنها تقع داخل الدوائر المحلية ثم الإقليمية ثم العالمية وضمن ثلاث دوائر، الاولى دائرة الجزائر ثم دائرة المغرب ثم دائرة

(1) العسلي، المصدر السابق، ص126.
(2) بسام العسلي، المصدر السابق، ص14، ص128.
(3) المصدر نفسه، ص131.
(4) المصدر نفسه، ص133.

الأمة العربية–الإسلامية وأخيراً دائرة الإنسانية، وجاء ذلك في مقالة له بعنوان "لمن أعيش" التي نشرت مطلع عام 1937[1].

وفي مقالة له بعنوان "مبادؤنا وغايتنا وشعارنا" أكد أبن باديس أن "أقرب الأوطان للجزائر هو المغرب الأدنى والمغرب الأقصى اللذان ما هما والمغرب الأوسط، ألا وطن واحد لغة وعقيدة وآداباً وأخلاقاً وتاريخاً ومصلحة في الوطن العربي والإسلامي ثم وطن الإنسانية العام"[2].

وفــاة ابن باديس:

توفي بن باديس في 16 شباط (فبراير) 1940، عن عمر ناهز الواحدة والخمسين، وقيل انه مات بمرض السل العظام وقيل أنه مات "مسموماً "ومهما تعددت الأسباب فالموت واحد، لكن ثمة حقيقة تقول إذا مات الوجود المادي لابن باديس فأنه حيّ بحضوره المعنوي والروحي، وهو دليل على استمرار عروبة الجزائر [3]. فعندما أحس بقرب المنية هتف قائلاً: "فإذا هلكت نصيحتي فتحيا الجزائر والعرب"[4].

(1) محمد الميلي، بن باديس وعروبة الجزائر، ص158

(2) محمد الميلي، بن باديس وعروبة الجزائر، ص159.

(3) العسلي، عبدالحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، ص142.

(4) الشيخ خليل الحوراني، عبدالحميد بن باديس الداعية المصلح والسياسي المجاهد.

1430هـ/2009م

Ibn Badis's Concept of Arabism and Islam (1889-1940)

Asst. Prof. Dr. Zuhair Ali Al-Nahas*

Abstract

Ibn Badis (1889-1940) was a man of thought, culture and restoration. He was really the pioneer of nationality thought and Islamic Arabic culture in Algeria. His concept of Arabism and Islam stemmed from his comprehension of the concept of mother nationality(Algeria) as something historical, real and present. Arabism for him is homeland and a nation that preceded Islam, and he did not find any distinction to be Amazyghian Algerian or Arabian Muslim. He was fighting under complex revolutionary circumstances when the French colonizer used all Kinds of compulsion and force that pushed the Algerian people to sacrifice about one million martyrs so as to achieve his identity, independence and his Arabic affiliation.

* Dept. of History/ College of Arts/ University of Mosul.